

## نشأة الحضارات واندثارها في القصص القرآني

د.حسنية ضو محمد سالم

كلية الآداب، الجميل/ جامعة صبراتة

### المقدمة :

إن تفسير التاريخ وقيام الحضارات ، أو نهضة حضارات قائمة أو أفولها ليس مقصوراً على ظهور أديان ، وإنما مع الإيمان التام بقيمة الإنسان في الارتقاء عبر مدارج التحضر والرقي، فالإنسانية ليست بحاجة لظهور أديان جديدة ، لكنها قادرة على البعث والتجديد في نطاق ما هو قائم اليوم من أديان إلهية .

إن القضايا العامة للإنسان – بما فيها رقيه وتطوره ، أو انهياره وسقوطه – في الإسلام لا ينفصل فيها الجانب الغيبي عن الجانب المادي والاجتماعي ، وإنما نشأ هذا الفصل بين هذه الجوانب خلال عصور التخلف ، والذي ارتبط بفقدان الرؤية التاريخية للذات الحضارية .

فقيام الحضارات الإنسانية ، وتطورها ، أو انهيارها وسقوطها واندثارها ، يقوم على أساس أن الإنسان مستخلف في الأرض ، وهذا الاستخلاف يحمله أمانة الإعمار والإصلاح ، وبناء المجتمع الامثل ، الذي يعتمد التشريع الإلهي منهجاً وطريقاً لا يحيد عنه ولا يتخذ سواه .

ومن هذا المنطلق ، وقع الاختيار على موضوع هذا البحث الموسوم بـ ( نشأة الحضارات واندثارها في القصص القرآني ) بهدف الوقوف على العوامل التي تؤدي إلى سبل نشأة الحضارات أو أسباب اندثارها كما ورد في القصص القرآني . وقد تضمن البحث بالإضافة إلى هذه المقدمة ، توطئة وثلاثة مباحث وخاتمة واستنتاجات ، وفهرس المصادر والمراجع والإحالات . حيث تناولت التوطئة ، اختلاف مذاهب تفسير التاريخ . ومرد هذا الاختلاف الذي يعود إلى ذلك الاتجاه الذي يعتبر مهمة فلسفة التاريخ أبعد من تفسير الحوادث التاريخية وتعليلها، ودراسة الحقائق الواقعية وعوامل وقوعها . أما المبحث الأول ، فتناول التعريف بمفاهيم الحضارة والمدنية والثقافة ، وأما المبحث الثاني ، فتناول نشأة الحضارات في القصص القرآني من خلال بيان عوامل النشأة ، في حين تناول المبحث الثالث ، عوامل انهيار الحضارات واندثارها من خلال ما أورده القصص القرآني ، يلي ذلك الخاتمة والاستنتاجات ، ثم فهرس المصادر والمراجع والإحالات .

وقد اعتمد الباحث في إنجاز بحثه على عدد من المصادر والمراجع ، يأتي في مقدمتها ، القرآن الكريم ، والكتب ذات العلاقة بموضوع البحث ، والتي وفرت للبحث مرجعية أساسية مهمة . أما المنهج الذي اعتمده الباحث ، فهو المنهج التاريخي ، لاستنباط المعلومات وتحليلها ، وتدوين مجريات الأحداث ، وما ورد عنها في كتاب الله ، القرآن الكريم ، وكتب الفلسفة والتاريخ الإسلامي ، علاوة على المنهج التحليلي الفلسفي ، لتفسير حوادث التاريخ وتعليلها من أجل التوصل إلى الحقائق الواقعية وعوامل وقوعها .

وتأتي أهمية هذا البحث ، من أهمية بيان العوامل التي تقف وراء نشأة كل حضارة إنسانية ، أو اندثارها ، وفق ما ورد في القصص القرآني .

### ★ توطئة :

شغل موضوع التنوع والتطور والرقي والتحضر، في الحياة البشرية أذهان المفكرين ، واتجهت محاولاتهم لسبر غور الأحداث التاريخية ، ورصد عواملها ، وجمع نتائجها ، وملاحظة ظواهر الاتفاق أو الاختلاف فيما بينها ، بعد محاولة التأكد من صحة الوقائع ، وإدراك مؤيداتها ، ونما بذلك ما يمكن أن يعبر عنه بالحس التاريخي ، الذي تجاوز في نظرته للتاريخ أحداثه الظاهرة ، ووقائعه الكثيرة ، واتجه لمعرفة العوامل التي تؤثر في سيره وتطوره ، وإدراك الأصول التي انبعت منها ، والمراحل التي سلكتها ، والتيار الذي اندفعت فيه .

ونشأ عن هذا الحس التاريخي الذي اهتم بدراسة عوامل التطور في الحياة البشرية وأسباب انهيارها ، ثم اندثارها ، ما يسمى بتفسير التاريخ أو ( فلسفة التاريخ ) .

وينطلق هذا الاتجاه من فكرة أن التاريخ ليس هو الحوادث ، وإنما هو تفسير هذه الحوادث ، واهتداءً إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمن والمكان . (1)

ولقد فطن ابن خلدون ( ت 808 هـ - 1406 م ) إلى هذه الحقيقة التي يحاول بعض المؤرخين المحدثين جعلها إحدى سمات العصر ، فيسميها ( العصر التاريخي ) تقديراً لمكانة ما شاع في تفسير التاريخ من تمييز بين دراسة التاريخ دراسة علمية ، ووصف حوادث الماضي وصفاً سطحياً .

ومن هنا فإن ابن خلدون هو أول من أبرز - في مقدمته - الفرق بين تاريخ الحضارة ، والتاريخ السياسي ، ولفت النظر إلى حقيقة التاريخ ، حين قال عنه : (( إنه في باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق )) .<sup>(2)</sup>

وأشار إلى ما تتميز به الحياة الإنسانية من تغيير وتطور ، يحملان على النظر في الحوادث وربط بعضها ببعض ، وبيان ما فيها من أسباب ومسببات ، فقال : (( إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، والانتقال من حال إلى حال ، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة ، سنة الله ( تعالى ) التي قد خلت في عباده ))<sup>(3)</sup>.

ولكن ابن خلدون لم يقع فيما وقع فيه الذين فسروا التاريخ من الأوربيين من غلو وإسراف في تقدير النتائج التي استنبطوها من فلسفتهم للتاريخ ، فقد وصف ابن خلدون حقيقة التاريخ، بأنه خبر عن الاجتماع الإنساني، وما يعرض لطبيعة ذلك الاجتماع، ودعا إلى تحليل الظواهر الاجتماعية وتعليلها، وتجنب المنهج الذي يركز على الفروض التخمينية، ومحاولة تأييدها بالأدلة التي يستمدتها من وقائع معينة في التاريخ ، ويوجهها إلى تحقيق ما يرمي إليه من هدف.<sup>(4)</sup>

أما التفكير التاريخي فقد استفاد من التطورات الكثيرة في الحياة البشرية ، وأمدته عوامل كثيرة بحصيلة موفورة من الفهم ، وإدراك لكثير من الاتجاهات الفردية والاجتماعية في الماضي ، وكان للأزمات دور بارز في إثارة الاهتمام بتفسير التاريخ واستكناه جوهره ومعناه .<sup>(5)</sup>

ولكن مع ذلك فإن تفسير التاريخ قام على دراسات فكرية فرضية ، غير مقررة بالوقائع والتجارب المحسوسة ، من قبيل علوم الطبيعة وما جرى مجراها .

إن التفكير التاريخي قد غلا وتمادى في بعض اتجاهاته ، الأمر الذي يستدعي التحفظ إزاءه والتحوط والتقييد ؛ لتجنيء آثار هذا التفكير صحيحة متزنة ، فالحياة الإنسانية لا تسير وفق مراحل ثابتة لا تتبدل ، كما يرسمها المفكرون ، بحيث لا تختلف مرحلة عن أخرى ، ولا تتنوع في الخصائص والسمات .<sup>(6)</sup>

ومن هذا يتضح أن كثيراً من الدراسات الغربية التي قامت حول فلسفة ( تفسير ) التاريخ، لا تعد أن تكون فلسفة تخمينية لا تستند إلى أساس علمي صحيح ، ولا أدل على صحة ذلك من إخفاقها في تقديم القوانين العامة التي تخضع لها كل الشعوب في تقدمها أو تأخرها ، أو

تطورها إجمالاً . ولكن رغم كل هذا لا يمكن نكران فضلها في تنمية الأذهان إلى هذا الجانب الذي يحاول أن يضع تفسيراً تعلق به أحداث الماضي ، وما يُرى فيها من ترابط يشير إلى بعض القواعد التي تسيّر حركة التاريخ في سياقها .<sup>(7)</sup>

أما القرآن الكريم ، فقد تعرض لذكر نماذج من الماضي للتدليل على دقة ما يذهب إليه في تفسيره للحضارة والتاريخ ، ودراسة الماضي ليست غاية في حد ذاتها ولكنها ميدان تستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها ، ولعل هذا ما تشير إليه الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن الأمم الخالية ، وموقفها من الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله سبحانه إليها ، والأمر بالسير في الأرض ، للنظر في عاقبة المكذابين للرسل والأنبياء ، ونصر الله تعالى لهؤلاء ، فتلك الآيات الكريمة توضح الغاية من دراسة التاريخ أو الماضي ( تفسيره ) وهي العظة والعبرة ، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [ آل عمران : 137 ، 138 ] . وقال جلّت قدرته : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ [ يوسف : 111 ] .

فما لم تكن دراسة الماضي ( التاريخ ) عظة وعبرة ، وتوجيهاً لما هو أولى ، فإن هذه الدراسة من وجهة النظر الإسلامية لا جدوى من ورائها .<sup>(8)</sup>

### \* المبحث الأول : التعريف بمفاهيم الحضارة والمدنية والثقافة :

تتباين معاني مفاهيم الحضارة والمدنية والثقافة لدى المهتمين بالدراسات والأبحاث التي تهتم بعلم الإنسان ( الانثروبولوجيا ) ذلك العلم الذي يهتم بأصول الاجتماع البشري ونشأة التفكير الإنساني ، ومدى ارتباط هذه المفاهيم بالإنسان كموضوع للتغيير وفاعل في عملية التغيير ، وتباين المجتمعات البشرية في ظروفها وأنماط معيشتها وأساليب تفكيرها ، وعاداتها ومعتقداتها وقيمتها .

كل هذا يجعل تعاريف هذه المفاهيم تختلف من باحث إلى آخر ، ومن مجتمع إلى آخر ، ومن عصر إلى آخر .

ولأجل التعريف بهذه المفاهيم ، وتطور مدلول كل منها ، وبيان الرأي المختار، ولنبدأ

بالحضارة :

## 1- الحضارة :

عند البحث في معاجم اللغة عن المعنى اللغوي للحضارة نجد أن الحضارة تعني الإقامة في الحضر ، أي في المدن والقرى ، بخلاف البداوة ، وهي الإقامة المتنقلة في البوادي .<sup>(9)</sup> إذن فالمعنى اللغوي لكلمة الحضارة ، هو الإقامة في الحضر أو الحاضرة ، أي الإقامة في المدن والقرى والأرياف خلافاً للبداوة التي تعني الإقامة في البادية .

ومن هنا فإن أصل كلمة الحضارة هو الاستقرار والإقامة الدائمة ، ومن ثم فليس بالضرورة أن يكون هذا الاستقرار في المدينة ، إذ أن الاستقرار قد نشأ تاريخياً في القرى الصغيرة ، ثم اتسعت هذه القرى وتطورت فتحوّلت إلى مدن ، وعليه فإن نشأة المدينة كانت متأخرة بالنسبة إلى نشأة القرية ، فكلمة الحضارة بمعنى الاستقرار والإقامة الدائمة تشمل القرى والمدن ، وفي المدينة توجد مظاهر التقدم العلمي والتقني والفكري والأدبي وغيرها .<sup>(10)</sup>

أما في اللغات الأجنبية كالإنجليزية أو الفرنسية ، فإن كلمة حضارة تعني مدني أو مواطن مقيم في المدينة ، ثم أخذت هذه الكلمة تدل على صفات الأدب والعلم وحسن العشرة ، وما إلى ذلك من الصفات الحسنة التي يكتسبها الإنسان المتمدن ، واكتسبت الكلمة فيما بعد المعنى الشائع الآن وهو إما إشارتها إلى الوحدات الحضارية التي ظهرت في تاريخ البشرية ، أو إلى الحضارة بإطلاق ، أي حضارة الإنسان منذ أن وجد .<sup>(11)</sup>

أما المعنى الاصطلاحي للحضارة فنشأ نتيجة تطور استخدام كلمة الحضارة لتأخذ معناها الاصطلاحي خلال القرن التاسع عشر ، فأصبحت تشير إلى وضعية الرقي والتقدم على مستوى الفرد والمجتمع ، وأخذ هذا المفهوم يختلط ويتداخل مع مفهوم الثقافة ، فنتج عن ذلك اضطراب وعدم ضبط أو تحديد لدلالة كل منهما عند علماء الاجتماع وعلماء علم الإنسان (الانثروبولوجيين) ، ومن ثم تعددت تعاريف الحضارة . كما أن مفهوماً آخر وهو المدنية قد بدأ يختلط ويتداخل مع مفهومي الحضارة والثقافة .

مما تقدم يمكن القول : إن الحضارة هي حياة مجتمع له قسط من الاتساع البشري والمكاني ، ومن الامتداد الزمني ، متمثلة في نظمه ومؤسساته ، وفي مكاسبه وإنجازاته ، وفي القيم والمعاني التي تنطوي هذه الحياة عليها ، وهذا المفهوم للحضارة ، مناقض لمنظ الحياة البدوية .

وبذلك فإن الباحث يحاول أن يعرف الحضارة بتعريف يراه جامعاً لجميع خصائصها ،  
فالحضارة هي : ذلك التراث التاريخي المتمثل في العقائد والقيم ، التي ترسم للحياة غاية مثلى ،  
ومغزى روحياً عميقاً ، متعالياً على متناقضات المكان والزمان .

## 2- المدنية :

أما المعنى اللغوي لكلمة مدنية والتي يميل كثير من الباحثين إلى استخدامها مرادفة  
لكلمة حضارة ، فإنها تشير في اللغة إلى ارتباط مكاني . فمدن بالمكان أقام به . (12) ومهما  
يكون من أمر ، فالواضح أن المعنى الأصلي الذي تنطوي عليه لفظة المدنية ، إنما هو سكنى  
الحوضر أو المدن ، وما ينشأ عن هذه السكنى أو يصحبها من فنون الحياة ومظاهرها. (13)

أما " ويل ديورانت " فقد حاول أن يستفيد من كلمة مدنية ، وعلاقتها بالنشاط الزراعي ،  
كما حاول أن يربط بين كلمة المدنية وعلاقتها بالتهذيب ورقة المعاملة ، ورأي أن ذلك ضرب من  
السلوك المهذب الذي هو من طبائع أهل المدن - وهم الذين صاغوا كلمة المدنية - ومن  
خصائص المدينة وحدها ، وذلك لأنه يجتمع في المدينة ما ينتجه أهل الريف من ثراء ، ومن  
نوايغ العقول ، وكذلك يعمل الاختراع ، وتعمل الصناعة في المدينة على مضاعفة وسائل الراحة  
والترف والفرح ، وفي المدينة يتلاقى التجار لا ليتبادلوا السلع فحسب ، وإنما الأفكار أيضاً  
وعندها تتحقق المثاقفة ، وبرهف الذكاء ، وتستثار فيه قوته على الخلق والإبداع.

وفي المدينة يستغنى عن فئة من الناس ، فلا يطلب إليهم صناعة الأشياء المادية ،  
فتراهم يتوافدون على إنتاج شتى ضروب العلم والمعرفة . نعم إن المدنية تبدأ في كوخ الفلاح ،  
ولكنها لا تزدهر إلا في المدن . (14)

بناء على ما تقدم فإن المدنية هي ، تراث المعرفة التطبيقية الذي يرمي إلى السمو  
بالإنسان ، والارتفاع به فوق مستوى الاستلام لملايسات الطبيعة .

## 3- الثقافة :

إن الثقافة في اللغة تعني الحدق وسرعة التعلم وتقويم المعوج ، فتقف الشيء ثقفاً وثقوفة:  
حدقه ، وإنسان ثقف ، حاذق فهم. (15) ويقال : ثقف الشيء ، وهو سرعة التعلم .

إذن فالثقافة تتصل بمعنى من معاني تقويم الذات ، ومعالجتها نحو الكمال والاستواء .  
إن كلمة ثقافة قد تكون أكثر ارتباطاً بمعاني التهذيب ورقة المعاملة وما يتصل بهما من  
التقويم والمعالجة ، بخلاف ما ذهب إليه " ويل ديورانت " عند تعرضه بالحديث عن كلمة مدنية

وارتباطها بالتهذيب ورقة المعاملة . وقد ساعد هذا الأصل اللغوي على تطور كلمة الثقافة ، لتفيد عند بعض الباحثين في العصر الحديث معاني تتصل بالإبداع الفكري والفني .

دخل مفهوم الثقافة في الأدبيات المعاصرة مع مطلع القرن العشرين من خلال حركة ترجمة الأبحاث والمؤلفات والتي نقلت من مختلف اللغات الأوربية إلى اللغة العربية، وكان هذا المصطلح - مصطلح الثقافة - قد ظهر أولاً في أوروبا في أواسط القرن التاسع عشر، حيث نما وتطور مع نشوء وتقدم الأبحاث والدراسات الإنسانية والنفسية والاجتماعية، ومن ثم أخذت تعريفات الثقافة تتعدد وتباين . (16)

ومن أقدم التعريفات التي وضعت للثقافة ، تعريف ( إدوارد تايلور ) حيث يعرف الثقافة بأنها : المركب الكلي الذي يشتمل على المعرفة والمعتقد والفن والآداب والأخلاق والقانون والعرف والقدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع . (17)

ويعرف ( ك . رايت ) الثقافة بأنها : النمو التراكمي للتقنيات والعادات والمعتقدات لشعب من الشعوب يعيش في حالة الاتصال المستمر بين أفرادها ، وينتقل هذا النمو التراكمي إلى الجيل الناشئ عن طريق الآباء وعبر العمليات التربوية . (18)

أما تعريف ( مالمينوفسكي ) للثقافة فقد جاء مؤكداً على دورها وأهميتها ، فهي : جهاز فعال ينتقل بالإنسان إلى وضع أفضل ، وضع يواكب المشاكل التي تواجه الإنسان في هذا المجتمع أو ذلك في بيئته وفي سياق تلبية احتياجاته الأساسية . (19)

وهكذا أخذت تعريفات الثقافة تتجدد وتتطور نتيجة للتطور العلمي والفهم المتجدد للثقافة، ومن ثم أخذت هذه التعريفات تجمع بين الجانب الوصفي والجانب الديناميكي الفاعل للثقافة ، وانطلاقاً من ذلك فالثقافة ليست مجرد معلومات يكتسبها الإنسان ، وهي ليست مجرد تراكم للمعارف ، بل إنها مواقف حية ، متحركة ومتجددة ، وهي طموح وسعي مستمر لتحقيق إنسانية الإنسان في مجتمعه وبيئته ، وهي بالتالي خاصية إنسانية تجعله متفرداً ومتميزاً عن غيره من المخلوقات .

ومع تطور الدراسات والأبحاث شهدت الثقافة تطوراً موازياً في مفهومها ، حيث اعتبر فريق من الباحثين في العلوم السلوكية الثقافة تجريباً للسلوك دون أن تكون هي نفسها سلوكاً ، إنها الأفكار المجردة الموجودة في العقل ، ومن هذا القبيل تعريف ( أوارد هيريو ) ، الذي اكتسب شهرة واسعة ، حيث يرى أن الثقافة هي : ما يبقى في ذاكرتنا عندما ننسى كل شيء . (20)

والواقع أنه لا معنى لتجريد السلوك والأفكار المجردة إلا عندما يعبر عنها الإنسان سلوكياً بالقول أو بالفعل أو بما يصطنعه من رموز ، ومن ثم فإن وضع التجريد في مقابل الواقع في مسألة الثقافة ، إنما هو طرح خاطئ ، لأن المجرد والواقعي في الثقافة وجهان لحقيقة واحدة ، فالثقافة وهي مجموعة من الممارسات تشتمل على أشياء ووقائع وسلوكيات تحمل أبعاداً رمزية أو معاني مجردة دون أن تنتفي عنها صفة الواقعية ، ومن ثم فلا معنى للتفريق بين المجرد والواقعي على صعيد المفهوم الأوسع للثقافة ، ولما كان السلوك مشتركاً بين الإنسان والحيوان ، فإن الإنسان يظل متميزاً بقدرته على تجريد هذا السلوك ، ومن هنا كان الفصل عند أولئك الباحثين بين السلوكي والثقافي والتميز بينهما .

ولكن ما يمكن قوله أن الثقافة سلوك خاص بالإنسان وحده ، ولا يرقى إليه سلوك بقية المخلوقات الحية ليشكل ثقافة . (21)

ولما كان لكل مجتمع هويته الثقافية التي ينتمي إليها ويعتز بها ، وله ظروفه وأحواله ومصادر ثقافته ، فقد كان من الطبيعي أن تتباين تعريفات الثقافة من مجتمع إلى آخر ، ومن هنا كان تعددها وكثرتها .

أما في المجتمع العربي ، فإنه حين يتم التطرق إلى تعريف الثقافة ، لابد من الانطلاق من واقع المجتمع العربي ، من ظروفه وأحواله ، وبمعنى آخر فإنه حين يتم التفكير في الثقافة والتحدث عنها ، وتعريفها ، ينبغي تحديد مفهومها من داخل المجتمع العربي ذاته ، حيث له ظروفه والمصادر التي يستمد منها تفكيره ، وله طموحاته وتطلعاته وخصوصيته الثقافية ، ومن هنا يعرف الدكتور محمد عابد الجابري ، الثقافة بأنها : المركب المتجانس من الذكريات والرموز والقيم والتصورات والتطلعات والإبداعات لأمة ما تحتفظ بهويتها الحضارية في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية ، وقابليتها للتواصل أخذاً وعطاءً ، إنها المعبر الأصيل عن خصوصيتها التاريخية ونظرتها إلى الإنسان والكون والحياة . (22)

ويعرف الدكتور قسطنطين زريق الثقافة بأنها : جماع حياة مجتمع ما بدائياً أو راقياً ، وتتألف من عنصرين ، أحدهما ، معرفة صحيحة يكتسبها المرء من خلال إطلاعه الشامل على القواعد والمبادئ والأفكار الأساسية التي تقوم عليها العلوم والفنون والآداب ، ومن علم متخصص متعمق في وجه من وجوه هذه الثقافة العامة . والآخر القوى العقلية والروحية التي يكتسب المرء بها المعرفة ، ويجعلها قسماً من نفسه وشخصيته ، وهذا الاكتساب لا يأتي دون



بذل جهد أو معاناة ، بل بجهد نفسي يتطلب صفات روحية وعقلية خاصة لا تتم الثقافة بدونها . وهذا يقودنا إلى ما كان أجدادنا يوصون به المتأدب من أن يعرف شيئاً عن كل شيء ، ويعرف كل شيء عن شيء ما ، وكانوا يقولون عن الأدب بأنه الأخذ من كل علم بطرف . (23)

وإذن فالثقافة هي كل ما يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات الحية ، وبها يتميز هذا المجتمع عن ذلك ، إنها ثمرة كل نشاط إنساني محلي نابع من البيئة ومعبر عنها أو مواصل لتقاليدها في هذا الميدان أو ذلك ، إنها أسلوب أو طريقة حياة مجتمع معين وبما تتضمنه حياته من تفاصيل تتعلق بأنماط عيشه ، وبما يميزه عن غيره من المجتمعات . (24)

وإذا كان لكل مجتمع بشري طريقته أو أسلوبه في الحياة وخصوصيته الثقافية التي يعتز بها ويحرص على نقائها .

وإذا كانت أوروبا تخشى على ثقافتها من الثقافة الأمريكية ، فإنه من الأولى والأجدر بالعرب أن يحافظوا على هويتهم وخصوصيتهم الثقافية . (25)

ولما كانت الثقافة العربية مقوماً أساسياً من مقومات الشخصية أو الذات العربية ، وعنصراً أساسياً في وحدة الأمة ؛ فإنه من الواجب أن يتم السعي لتطوير هذه الثقافة بالاقتراب من ثقافة الآخرين بوعي وبما يقوم تلك الثقافة ، ويجعلها تواكب مستجدات العصر ومطالبه ، مع الحرص على استبعاد ما لا يتفق والعقيدة الإسلامية والعادات والتقاليد والقيم . بهذا يمكن المحافظة على الثقافة العربية من أن تنصهر أو تذوب في إطار أية ثقافة أخرى .

وإذا كانت الاصاله هي محاوره الماضي من أجل الحاضر والمستقبل ، وليس التشبث بالماضي ، فإن الحداثة في المقابل لا تكون بالتعلق بكل ما هو جديد .

بناء على ذلك ، فإن الثقافة العربية وأصالتها تتحقق بإعمال العقل في كل ما يخص الأمة ويحيط بها ويتعلق بحياتها ، تأخذ من الآخرين ولكن بما يتوافق مع الاصاله والخصوصية الثقافية من جهة ، ومواكبة التقدم الحاصل على الصعيد العالمي من جهة ثانية .

إن الحداثة لا تعني رفض التراث ، ولا القطيعة مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى ما يسمى المعاصرة ، فالموقف الحداثي الصحيح يتصف أو يتسلح بالعقلانية والديمقراطية والتعامل العقلاني النقدي مع جميع مظاهر الحياة . والحداثة هي رسالة أو نزوع من أجل التحديث ، تحديث الذهنية ، تحديث المعايير العقلية والوجدانية . (26)

وفي المنظور التاريخي فإن الحداثة تشير إلى الفترة المعروفة بعصر الحداثة والتنوير في أوروبا بدءاً من نهاية القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن العشرين ، وتشير فترة ما بعد الحداثة إلى الفترة الأخيرة من القرن العشرين وحتى الآن .

وفي المنظور الفكري ، تعني كل من الحداثة وما بعد الحداثة حالة متميزة من الوجود لدى الفرد والمجتمع ، وذات لون معين من النظر والفكر والممارسة .

فالحداثة تعني وضعية متميزة لدى الفرد على صعيد الفكر والثقافة والحضارة ، أما التحديث ، فيعني التغيير أو التحديث ، أو التجديد ، وعليه فالحداثة غير التحديث . الحداثة تنطوي على تغيير بنيوي عميق في الفرد والمجتمع فكراً ونظماً وحضارة . (27)

### ★ المبحث الثاني : نشأة الحضارات في القصص القرآني :

الحضارات لا تنمو ولا تزدهر في فراغ ، بل لابد لها من دواعي وعوامل تنشأ بها ، أو تكون عاملاً مساعداً لنشأتها ، ومن هذه العوامل :

#### 1- العامل الديني :

العامل الديني هو أحد الروابط القوية التي تجمع أبناء الأمة تحت عقيدة واحدة ، فتكون سبباً في اجتماع الكلمة ، والسعي لتحقيق الهدف ، وتعزيز المكانة ، والدفع باتجاه العمل في جو من الثقة والرضا . فقد استطاع الدين الإسلامي أن يفجر في أوساط الجماعة التي التزمته ودانت به طاقات هائلة أثرت البشرية بشتى القيم الحضارية ، وأمدتها بأسباب القوة والمنعة من المؤثرات الخارجية مادامت ملتزمة بتعاليمه متجاوبة مع قيمة وأسس وأحكامه . وهو ما قادها إلى الغلبة والانتصار في كل الميادين ، حيث ظل سبب النصر دوماً وعلى مدى التاريخ الطويل للأمة الإسلامية مرتبطاً بمدى الالتزام به . (28)

وكان للجانب الديني الأثر الكبير في لمّ شمل المسيحيين وإتحاد هدفهم مع اختلاف أجناسهم ولغاتهم في حروبهم الصليبية ، فقد نسبوا كذباً وبهتاناً في تبرير حربهم ضد المسلمين ، بأن المسيحيين عذبوا في بلاد المسلمين ، بأبشع الوسائل وتلطيخ الكنائس والمقدسات المسيحية بكل ما هو قذر ومذنس ، وأنهم لا يسمحون للمسيحيين بممارسة شعائر دينهم . (29)

وحول أهمية الدين ، وكونه أحد عوامل نشأة الحضارة ، هناك من يرى أن الدين ، يبعث أمماً راكدة ويبدع حضارات رائعة ، كما فعل الدين الإسلامي في العرب ، حيث إنه شرف

جزيرتهم وحملهم رسالته ودفعهم يحملون منارها ، ويدعون الناس إلى شريعته وأخلاقها ومعنقاتها ، فكانت خلال حقبة قصيرة من الزمن قد ازدهرت على أرض المسلمين حضارة مادية وفكرية غدت تحمل لواء الحضارة الإنسانية في تلك الحقبة من التاريخ .<sup>(30)</sup>

ولو نظرنا إلى واقع حال القبائل العربية قبل الإسلام لوجدنا مظاهر التناحر والثأر والزنا والسطو والنهب وشرب الخمر ، وعبادة الأوثان والأصنام ، فلما جاء الإسلام ، وكان ثورة مقدسة على الظلم والبغي والفساد ، جمع كلمة المسلمين تحت راية (( لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً رسول الله ، صلى الله عليه وسلم )) فجمع الشمل ودعا إلى الوحدة ، وحدة الأمة ، وأقر العدل ، وسرعان ما ظهرت نتائج هذا الدين في الانتصارات التي حققها المسلمون في كافة الميادين ، فكانت شاهداً على حضارة العرب والمسلمين .

ولقد أهتم الدين الإسلامي بالتربية الروحية العقديّة للإنسان ، واعتبرها في طليعة العوامل والأسباب التي تساعد على استقرار الإنسان ، وبناء حضارته وتطوره ورفقيه . وينطلق البناء الروحي للإنسان في الإسلام ، من مبدأ الإيمان بالله ، وبوحدانيته ، قال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [ البقرة:284 ] .

لذا يجب الإيمان بأن الله تعالى واحد في ذاته بمعنى أنه لا شريك له ، أي أن ذاته ليست مركبة الأجزاء ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [ الإخلاص: كاملة ] ، وقال جل جلاله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [ الأنبياء:22 ] . فعبادة الله أساسها التوحيد ، وكل عبادة لا تقوم على توحيد الله ، وهي شرك وضلال ، والإيمان بالله وبوحدانيته يقتضي حصر الأمر كله بيده جلّت قدرته ، قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [ الأعراف:53 ] .

ولما كان الأمر كله بيده سبحانه ، فإن هذا يستلزم من الإنسان ألا يعيد أحداً سواه ولا يرجو غيره ولا يستعين إلا به ، قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [ الفاتحة:4 ] . لأن لا أحد سواه يستحق العبادة ، ولا أحد قادر على الإعانة أو فعل شيء ، إلا بمشيئته ، قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [ الإنسان:30 ] . وقال أيضاً : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [ يونس:107 ] . وقال أيضاً : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا دُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿ [ الحج:71 ] .

وهذه التربية الروحية تخلق في نفس المسلم العزة والكرامة وتجعله لا يستخذي لأحد ، أو يضعف أمامه بسبب ضعف نفسي أو حاجة مادية رخيصة ، وهذا بالتالي سيجعله عزيزاً رافضاً للذلال ، متوجهاً للبناء والاعمار .

واعتبر الإسلام هذا البناء الروحي عنصراً ضرورياً أساسياً في بناء الحضارة الإنسانية ، قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [ النور: 53 ] .

ومن عناصر البناء الروحي التي يراها الإسلام ضرورية لقيام المجتمع الصالح القادر على إعمار الأرض ، وبناء الحضارة ، ومن ثم الوصول إلى التقدم والرفي ، الأيمان بقضاء الله وقدره ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ [ التوبة:51 ] . هذا الإيمان سيساعد على استقرار النفس الإنسانية واطمئنانها ، مادام الأمر كله بيده سبحانه ، وهو الرحيم بعباده ، البصير بهم ، وولي المؤمنين منهم ، وهذا بالتالي سيمكن الإنسان المسلم من مجابهة الأحداث بنفس راضية مرضية ، ومن معالجتها بحكمة وروية ، لا يشوبه قلق الخائفين ولا ضعف المتخاذلين ، فيمضي في البناء والاعمار دون تردد أو وجل .

ويتفرع عن هذا المبدأ ، عنصر آخر من عناصر البناء الروحي والعقدي ، هو التوكل على الله وتفويض الأمر إليه ، قال تعالى : ﴿ وَأَفْوُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [ غافر: 44 ] . وتفويض الأمر إليه سبحانه ، لا يعني الانهزام من مواجهة الأحداث ، بل يعني أن حول الإنسان وقوته ضعيفة إذا قيست بحول الله وقوته ، بل لا حول ولا قوة إلا بالله . وعليه فإن تفويض الأمر إلى الله سبحانه ، يعني أن الإنسان يبذل قصارى جهده ، ويعمل حسب اجتهاده وقدرته ، وبعد ذلك يفوض الأمر إلى الله الذي منه فيض الوجود ، إن شاء أعطى ، وإن شاء منع ، وهذا يعني تحصين النفس الإنسانية من اليأس والقنوط والإحباط ، إذ هي ابتداءً تؤمن بأنها مهما بذلت من جهد في سبيل تحقيق غاية ، فإنها لن تتحقق إلا بمشيئة الله ، وإن لكل أجل كتاباً ، فما لم يتحقق اليوم ، فإن الله قدر أن من المصلحة تحقيقه غداً . ومن هنا فقد أكد الإسلام على البناء الروحي للإنسان ، وأكد صدق التوكل على الله ، قال تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ

النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿ آل عمران:173 ﴾ . وقال جللت قدرته : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [ آل عمران:159 ] . وقال أيضاً : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْنُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [ إبراهيم:15 ] . وقال أيضاً : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [ آل عمران:122 ] . وقال أيضاً : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق:2]

إن التوكل على الله سبحانه يغرس في النفس الإنسانية القوة والثقة والعزيمة ، والتفاؤل بالوصول إلى الغاية ، وتحقيق الهدف المشروع ؛ لأن صدق التوكل عليه سبحانه ، يعني أنك مؤمن إيماناً جازماً بأن الله قد تكفل بك وبجميع أمورك ، وهو وكيلك دون سواه ، وهو جللت قدرته القادر على كل شيء ، إن يردك بخير فلا راد لفضله ، يفعل ما يشاء ، وهو العزيز القدير .

هذه الثقة المطلقة بأن الله مع الإنسان ، متكفل به ، تدفعه إلى البناء والاعمار بكل ثقة وحزم .

## 2- العامل البيئي ( الطبيعة ) :

إن الإنسان يتأثر بالبيئة الطبيعية ، من حيث ظروفها المناخية والجيولوجية ، والجغرافية في ملبسه ، ومسكنه وإشباع حاجاته ، وأنماط سلوكه . فسكان المناطق الثلجية ، عاداتهم ، ولباسهم ، ومسكنهم تختلف عن سكان المناطق الصحراوية ذات درجة الحرارة المرتفعة ، مع نقص الموارد الطبيعية من مثل الماء والكأ .

والمجتمعات الشرقية التي يغلب عليها الطابع الروحي تختلف في إدراكها للأشياء عن المجتمعات الغربية التي يسودها الطابع المادي والمجتمعات الفقيرة تختلف في مدرقاتها عن المجتمعات الغنية . (31)

وكل يحاول وهو في بيئته أن يتكيف مع ظروفها وخصائصها ، فيعد المتطلبات المعيشية اللازمة ، من ملبس ومسكن وغذاء ، وكلما كانت البيئة معتدلة في درجتي الحرارة والبرودة ، وتخلو من الأعاصير والزلازل والبراكين المدمرة ، مع توفر الماء وخصوبة الأرض ، كانت مشجعة لبني الإنسان ، وهذا بدوره يدعو للاستقرار والبناء والتشييد ، فالحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق . لأنه إذا أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع

وعوامل الإبداع والإنشاء ،<sup>(32)</sup> ويمكن القول أن العوامل الطبيعية لوحدها لا تخلق حضارة ، ولكنها تهيئ سبل ازدهارها. وعلى ذلك فحين يوفق الإنسان إلى الاستقرار في بقعة من بقاع الأرض بأعداد وفيرة ، وحين ينجح في إزاحة ما يكتنفها من العوائق الطبيعية ، وحين يهيئ لنفسه وأفراد بني جنسه التعاون في هذه البقعة أو تلك ، حين يتم له ذلك كله ، تكون هناك حضارة ، أو هناك - في القليل - سبيل إلى قيام حضارة .

أما إذا أخفق الإنسان في نضاله مع البيئة الطبيعية المحيطة به ، وعجز عن الاستقرار في بقعة من بقع الأرض ، فلن تكون هناك حضارة ، ذلك لأن سلامة الإنسان في البيئات القاسية لا تكفلها كثرة العدد ، وإنما تكفلها الأعداد القليلة التي يمكنها البقاء فيها ، واحتمال قسوتها ، مثل هذه الأعداد القليلة تكون بعيدة عن دواعي الاستقرار ، وهو شرط لقيام الحضارة . وهذا يؤكد على أن المناطق التي نشأت فيها الحضارات كانت مزدهمة بالسكان ، وهذا الازدحام شجعت عليه البيئة الصالحة المواتية ، كما أدلى هو في ذاته إلى تحقيق مشاريع كانت تصبح مستحيلة بغير تعاون الأيدي العاملة .

ولك يكن تكاثر السكان ميسوراً إلا حيث تتوفر الوسائل التي تساعد على إيجاد القوت لهذه الأعداد الوفيرة من بني الإنسان ، أعني بذلك حيث تتوفر المياه والأرض الصالحة للزراعة ، وحيث يتوافر مع هذه وتلك جو ملائم لحياة الإنسان والحيوان والنبات جميعاً . وقد أشار القرآن الكريم إلى أثر البيئة الصالحة في نشأة الحضارة الإنسانية ، وذلك من خلال الآيات الكريمة التي تحدثت أو أشارت إلى حضارات قسم من الأمم الغابرة مرتبطة بالبيئة التي نشأت فيها ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَيِّئِ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [ سبأ : 15 ] .

وقد دخل الإنسان في صراع مع قوى الطبيعة المحيطة به منذ فجر حياته على الأرض ، انتزاعاً للأسباب التي تمكنه من العيش والبقاء . ذلك أن تلك الأسباب من المنظور الإسلامي ، هي علاقة تسخير مستمطر معطيات الطبيعة ، أما من المنظور الوضعي ، فهي علاقة صراع وتحكم وسيطرة ، وربما اعتداء على حقوق الأجيال القادمة .

فالعلاقة بين الإنسان - بوصفه حجر الأساس لقيام الحضارات - وبين البيئة المحيطة به ، علاقة تحكم أو تسخير ، فالبيئة الطبيعية التي احتضنت الجماعات البدائية تحكمت بالإنسان ، وأخضعته إلى حد بعيد لقوانينها التكوينية التي خلقت بموجبها . فالصخر الجامد لا

يصلح للزراعة ، والمناخ الاستوائي لا يصلح لإنتاج محاصيل المناخ المتوسط أو البارد . فطبيعة القوانين المادية الطبيعية هي التي كلفت الجهد الإنساني . وكلما تقدم الصراع كانت الغلبة لمصلحة الإنسان ، فيزيد من تسخير قوى الطبيعة ، ويقلل من تأثيرها عليه ، وعلى بني جنسه . إن البيئة الطبيعية تلعب دوراً كبيراً ومهماً في نشأة الحضارة ، وفي المقابل انهيارها واندثارها ، لما للتفاعل بين الإنسان وهذه البيئة من آثار في الحضارة ، كما أن لها دوراً كبيراً أيضاً في تكوين الإنسان تكويناً إيجابياً أو سلبياً .

إن البيئة هي مادة التحضر ، ومعطياتها المنتزعة بالعمل الإنساني هي وسيلة التحضر ، والحضارة هي المحصلة النهائية التي توظف باتجاه سعادة الإنسان ورفاهيته .

فوفرة المياه عامل أساسي في نشأة أية حضارة ، فكل الحضارات قامت على ضفاف الوديان التي تتوفر فيها المياه العذبة ، وعلى سواحل البحار . فالماء هو العنصر الأساسي في الحياة ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [ الأنبياء:30 ] . ونوعية التربة هي العنصر الآخر . فالسهول الرسوبية في مصر والعراق واليمن والشام كانت عاملاً مساعداً لقيام الحضارات القديمة ، مثل حضارة وادي النيل في مصر ، وحضارة وادي الرافدين في العراق ، وحضارة سبأ وما تلاها باليمن ، وحضارة البقاع الفينيقية .

إن اثر هذه العوامل - المياه ، المناخ ، التربة ، الموقع الجغرافي ، الإطلالة على المنافذ البحرية - واضح في تسهيل تفعيل النشاط الاقتصادي ، كما أن لها الدور الأكبر في العلاقات التي تنشأ بين المجتمعات المختلفة . فالتعاون الدولي في مجال التجارة ، يخضع لعوامل الموقع الجغرافي ، لاسيما في الوضع الدولي الوسيط ، لعدم تقدم وسائل الاتصال والمواصلات .

وهناك بالإضافة إلى ما مرّ كثير من الآيات القرآنية الكريمة التي تشير صراحة أو ضمناً إلى أهمية البيئة ، ودورها في نشأة وقيام الحضارات ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف:51] . فقد جاءت هذه الآية الكريمة على لسان فرعون مصر في معرض تفاخره بالوفرة المادية المشيرة إلى دور الطبيعة في قيام المدنيات الكبرى .<sup>(32)</sup> وقال جل ذكره : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [ سبأ: 15 ] . وهنا يشير النص القرآني الكريم إلى حضارة سبأ في اليمن ، والازدهار

فيها ، وهي حضارة اليمن التي ساعدها المناخ على ذلك الازدهار والترقي . وقال تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [ سبأ:16 ] . فإله سبحانه بعدما أنعم على قوم سبأ من أهل اليمن بمختلف أجناس الثمار ، وفي ذلك ما يدل على أن تلك النعم لا تكون إلا من قادر عالم وطلب منهم أن يشكروه ، ليس لأنه محتاج إلى ذلك منهم ، وإنما على ما رزقهم به ، فأعرضوا عن أمر الله وأتباع ما أوحى به إلى رسله ، مما جعل الله يستبدل تلك النعم التي أنعم بها عليهم بالهلاك ، فأرسل عليهم سيل العرم ، فصارت مزارعهم لا تنتج إلا أكل خمط وأثل . (33) قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّاماً آمِنِينَ ﴾ [ سبأ:18 ] .

وهكذا يبين القرآن الكريم وفق منطق السببية العقلانية ، أن الحضارات والمدنات الكبرى في التاريخ تنشأ على مادة من الطبيعة تساعدها خصائص مادة الطبيعة وثوراتها الأصلية ، لكي يأتي العمل الإنساني الموجه ليصنع منها حضارة متطورة ، وعلى ذلك فإن المجتمع الإنساني لا يتخذ سمة الحضارة ، ولا ينخرط في سلك المجتمعات المتحضرة ، إلا إذا أصاب حداً أدنى من السيطرة على طبيعة محيطه ، وعلى طبيعته البشرية ، فالطبيعة ( البيئة ) بذاتها لا تكون حضارة ، وإنما تكون ضمن عوامل أخرى .

وسواء اعتبرت طبيعة الأرض ومكوناتها ، أو طبيعة الإنسان ؛ فإن هذه أو تلك لا تعدو أن تكون مادة وسبباً .

ولذا فالمجتمع الذي يكون خاضعاً لمحيطه الطبيعي أقصى درجات الخضوع ، والذي يسير أفرادها بدافع السليقة والشهوة ، يظل قاصراً عن مرتبة الحضارة ، ولن تجد مجتمعاً مهما يكن همجياً أو بدائياً ، خالياً كل الخلو من أي أثر حضاري في محيطه البيئي ، أو من أية رابطة تربطه به .

ولقد سعى الإنسان منذ أن انبثقت إنسانيته إلى درء عوارض الطبيعة عن نفسه ، فنزل الكهوف ، واكتشف النار ، وأقتنص الحيوانات ، وصنع بعض الأدوات والآلات ، ومنذ ذلك الحين شعر ببعض الروابط التي تربطه بمن حوله ، وانتظم في أسر أو ما يشبه الأسر ، وفي هذا كله - بقدر ما يمثل من بداءات الفعل الإنساني في المحيط الطبيعي ، وفي الذات الإنسانية - بذور للحضارة ، فإذا تفتحت هذه البذور بعض الشيء وازدهرت وأثمرت في إنتاج طبيعي له



صفة الاستقرار والتراكم في نظم بشرية قائمة على قدر معين من التعاضد والتعاون ، اتخذ المجتمع عندئذ سمة الحضارة ، ودخل في نطاق المجتمعات المتحضرة المتطورة .

ومن مظاهر هذا التفتح الاستقرار وزراعة الأرض ، فالاستقرار أهم شروط نشأة وقيام الحضارة ؛ لذا فإن ابن خلدون قد أصاب في حصر هذه الصفحة بالمجتمعات المستقرة ، واعتباره الحضارة مناقضة للبداءة المتقلبة<sup>(34)</sup> ، والاستقرار مرتبطاً بمحاولة استثمار الأرض بالفلاحة . فالزراعة تتطلب الثبات ، وتقتضي أنواعاً من التعاون تفوق تلك التي تقوم في المجتمعات القنصية أو البدائية ، وتؤدي مورداً له حظ من الأمن والاستقرار ، ونتاجاً يمكن تخزينه للمستقبل .

والتحضر أو الرقي يتطلب تعاون أفراد المجتمع ، ففي المجتمع الزراعي يرقى التعاون عما هو عليه في المجتمعات التي دونه تطوراً ، فالجهود التي انبثقت منها الحضارة الأولى : كالمصرية والبابلية والفينيقية وأمثالها من حضارات الشرق القديم – كإنشاء السدود وحفر الاقنية الواسعة والترع ، وتلين الأرض الصلدة ، وركوب متون البحار ، والإفادة من الموقع الجغرافي للمبادلة والمتاجرة – هذه وأشباهاها تقتضي قدراً من التعاون والتعاضد أوفى مما تتطلبه أعمال الزراعة العادية ، وكلما ارتفع هذا القدر ، ازداد المجتمع تحقيقاً لشروط الحضارة واكتساباً لحظوظها .

### 3- العامل الاقتصادي :

إن العامل الاقتصادي يطلق ويراد منه : الثروات على تنوعها ، والأرض ، والمناخ ، والموقع الجغرافي ، وهبات الطبيعة ، إذن العامل الاقتصادي مرتبط بالعامل البيئي ارتباطاً عضوياً ، فكل منهما يكمل الآخر ومرتبطة به .

والله سبحانه قد جعل رزق الأفراد والأمم بيده حصراً ، قال تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [ الذاريات:22 ] . وقال تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [ النور:32 ] . فإذا ما تحول الخطاب من خطاب الأفراد إلى مستوى الخطاب الاممي ، فإن فضل الله على عباده كثير بما لا يدع مجالاً للحصر .

إن التصوير القرآني لا يعلق بالضرورة نشأة الحضارات على الثروة المادية ، لكنه لا يلغي آثارها ودورها في نشأة الحضارات ، بشرط صحة استثمارها ، فالقرآن الكريم يقرر حقيقة

هي أصل الثروة المادية والرفاه هو الماء ، وقد تكرر ذكر دور الماء لنماء الثروات في القرآن الكريم كثيراً ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ [ البقرة: 21 ] . وقال أيضاً : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [ البقرة: 163 ] . وقال أيضاً : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [ الأنعام: 100 ] . وقال أيضاً : ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ [ النحل: 10 ] . وأكد الحقيقة الكلية بقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [ الأنعام: 30 ] .

لذلك فالقول بأن الحضارات نمت وظهرت عند منبع المياه والوديان المائية العذبة ، أمر قرره النص القرآني الكريم ، قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [ الحج: 5 ] . ويعزز هذا الجانب قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [ الحج: 61 ] . وقال أيضاً : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ [ فاطر: 27 ] . وفي التعبير باختلاف الألوان إشارة إلى تعدد المحاصيل والمزروعات ، ثم تتحول الأرض بالماء إلى جنات ، قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ [ ق: 9 ] . وربط الله قضية الماء بالإيمان ، فقال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدِينَ اسْقُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ [ الجن: 16 ] . وبهذا يتبين أن الله الذي خلق الكون ، والإنسان ، وفق قانون العلة والمعلول ، قد جعل الوفرة الاقتصادية معلومة للماء من أمطار ، أو أنهار أو عيون ، وأنه سبحانه جعل موضوع الماء من مقدراته . ومن الماء ينتج النشاط الزراعي ، ثم اعتمدت الصناعة والكهرباء ، ومسالك التجارة على المياه .

مما تقدم يتبين أن الثروات وأسبابها عامل من عوامل نشأة وتطور الحضارات ، ففي مجال دور الزراعة ، وإحياء الأرض ، أشار القرآن الكريم إلى ذلك ، وربطه بالتوجيه الفكري ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [ الأنعام: 142 ] . وقال أيضاً : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [ الرعد: 4 ] .

وفي مجال الصناعات ، وأشار القرآن الكريم إلى الحديد الذي فيه بأس شديد ، فقال جل ذكره في وصف ذي القرنين : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف:83] . فقال لمن كلفه بعمل ، كما أخبر الله في قوله تعالى : ﴿ أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ [الكهف:92] .

وفي قوله يصف ملك داود ( عليه السلام ) ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَعَمَلُوا صَالِحًا إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ:10-11] .

فقد حث الإنسان الذي يقتفي خطوات الأنبياء المرسلين من عند الله ، بأن يوظف القوى في الطبيعة ، فالجبال الشامخات قد توظف لتحقيق أهداف الإنسان ، وتسخر لمهامه ، وكذلك العناصر الطبيعية كالحديد والنحاس وغيرها .

وقد أمر الله داود ( عليه السلام ) أن يقدر في استخدام الثروات بما لا يزيد عن الحاجة ، وعن سليمان ( عليه السلام ) قال تعالى : ﴿ وَلسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ ﴾ [سبأ:12] . ففي هذا النص الكريم ، إشارة لاستخدام الرياح كإحدى قوى الطبيعة والاستفادة منها ، وذكر أنه لين له ثروات الأرض ، إشارة إلى المعادن الكامنة فيها ، فقال تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ [سبأ:12] . ثم قال تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ [سبأ:13] . ولقوته ومنعته من جراء تطويع واستثمار قوى الطبيعة يخبر الله أن أعداءه لم يصدقوا موته ، فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ [سبأ:14] .

فإذا ازدهرت الزراعة والصناعات فاض الإنتاج ، وتحقق الوفرة الاقتصادي ، فتزدهر التجارة تبعاً لذلك والخدمات ، ويتكون الأساس المادي لنشأة الحضارات الإنسانية ، فالأساس المادي (( الثروة )) لأية حضارة عامل من عوامل نشأتها .

وبهذا يمكن القول بإمكانية أن تنشأ الحضارات حتى بدون العامل الاقتصادي ، ولكن القرآن الكريم لا يهمل دوره بحكم ارتباطه بالعامل البيئي .

#### 4- العامل الاجتماعي :

إن المجتمع الإنساني لا يقوم إلا إذا كان له حظ موفور من التماسك والترابط ، والتماسك والترابط يحدثان بفعل عاملين : الأول : ميل الإنسان الفطري إلى ذويه وأقربائه بالرحم والأرض والجوار ، وشعوره بضرورة التعاون والتعامل في سبيل ضمان رزقه وحماية نفسه وبسط سلطانه . والثاني : حاجة الإنسان - كما يقول ابن خلدون - إلى وازع<sup>(35)</sup> يضمن السلطة والنظام ، ويدفع الشر والعدوان ، فلا مجتمع بالمعنى الصحيح ولا حضارة ، بدون نوع وقدر من السلطة والنظام ، ومن هنا تنشأ أنواع من الروابط الاجتماعية ، توجد في كل حضارة من الحضارات ، مهما تكن أحوال هذه الحضارات وخصائصها ودرجات تقدمها أو تخلفها ، ومن هذه الأنواع : العادات والتقاليد والأعراف ، وهي سبل السلوك الاجتماعي التي توصل إليها أبناء المجتمع بالتجربة والاختيار فأقروها واطمأنوا إليها ، وتناقلوها قوماً عن قوم ، وجيلاً عن جيل ، وحرصوا على المحافظة عليها ، إذ وجدوا فيها ما يعزز روابطهم ويبرز خصائصهم ومميزاتهم ، فما من حضارة إلا ولأهلها عاداتهم وتقاليدهم في تناول مآكلهم ، وفي اختيار ألبستهم ، وفي تأنيث بيوتهم ، وفي أحاديثهم واجتماعاتهم ، وفي تصرفات بعضهم اتجاه بعض ، هذه العادات والتقاليد يتلقاها أبناء المجتمع عند مولدهم كما يتلقون المتطلبات الحيوية ، ثم ينشؤون على ممارستها والتطبع بها ، ويختلفون بعد ذلك حسب الأحوال السائدة في مقدار الاحتفاظ بها أو التحول عنها . فالعادات والتقاليد هي من الروابط التي ينتظم بها المجتمع ، وإن بعضها أشد أهمية في نظر المجتمع من سواها ، ومن بين العادات المهمة تلك التي تتطوي على أخلاق وفضائل اجتماعية كالصدق والأمانة والمروءة والشهامة ، والعفة والشجاعة وإكرام الضيف ، وأمثالها . هذه الأخلاق والفضائل يجد فيها أبناء المجتمع خيرهم وصلاحهم ، وفي ممارستها والحفاظ عليها ضمان سلامتهم ورفيهم .

ومن وسائل تنظيم المجتمع ، والتنسيق في العلاقات بين أفراد بعضهم ببعض ، وبالمجتمعات الأخرى : الشرائع السماوية " الإلهية " والقوانين البشرية ، وهذه الأخيرة تختلف عن الشرائع السماوية من حيث المصدر الذي تستمد منه سلطتها . فالشرائع السماوية تستقي من التعاليم والأحكام الإلهية ، أما القوانين البشرية فتنشأ في الأكثر عن العادات والتقاليد والأعراف ، وعن نظرة المجتمع في تجسيد الخير والشر ، وفي حال من الأحوال يكون الشرع أو الفقه ، أو القانون الوضعي المتبع مظهراً من مظاهر حضارة المجتمع .

فالمجتمع الصالح القادر على إقامة حضارة صالحة ومتطورة ، هو ذلك المجتمع المتصف أفراده وفتاته بالأخلاق الفاضلة السامية التي يدعو إليها الله في كتابه العزيز، والتي من أبرزها :

#### أ- الصدق :

إن الصدق في القول ، خاصية من خصائص المجتمع الصالح . قال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ [ مريم:53 ] فالله سبحانه يثني على سيدنا إسماعيل بن إبراهيم الخليل ( عليهما السلام ) بأنه كان صادق الوعد فيما يلتزم به على نفسه ، وبما نذر به على نفسه وإيفائها حقها ، وأن الصدق دعامة أكيدة في خلق الإنسان المسلم ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة:120] .

#### ب- الأمانة :

ومن خصائص المجتمع الفاضل حفظ الأمانة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [ النساء:57 ] وقال أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [ الأنفال:27 ] . وقال جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [ المؤمنون:8 ] .

فالله سبحانه في هذه الآيات الكريمة يأمر المؤمنين من عبادة بأداء الأمانات إلى أهلها ؛ ليجسد بذلك جانب العلاقات الاجتماعية الفاضلة بين أفراد المجتمع الإنساني ، وينهى عن عدم أدائها ؛ لما يترتب على ذلك من فساد وتصدع في العلاقات الاجتماعية بين الناس .

#### ج- العدل :

ومن خصائص المجتمع الفاضل أن يسود العدل بين أفراده ومؤسساته ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [ النحل:90 ] . وقال أيضاً : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [ المائدة:9 ] . وقال جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [ الأنعام:153 ] .

فالله سبحانه ، يأمر عباده بالعدل ، وهو القسط والموازنة ، ويندب إلى الإحسان ، ويأمر بصلة الأرحام ، وينهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والعدوان على الناس ، ويؤكد

على ضرورة العدل وأهمية إقامته في بناء وإقامة العلاقات الاجتماعية ، وأهمية استعماله في كل أحد قريباً أو صديقاً كان أم عدواً ، وذلك أقرب لتقوى الله سبحانه .

فإنه يوصي عباده بالعدل في القول والفعل على القريب والبعيد ، وفي كل وقت وكل حال ، تأكيداً لأهمية جانب العدل في استقرار فئات المجتمع ومكوناته ، وانتقاء الخوف من ضياع الحقوق ، وبذلك يتوفر الأمن والطمأنينة .

#### د- التعاون على البر والتقوى :

والتعاون على البر والتقوى ، والعمل الصالح ، والابتعاد عن المفسد والشرور ، جانب آخر من الجوانب التي يوصف بها المجتمع الفاضل ، قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [ المائدة:3 ] .

فإنه يأمر عباده بالمعاونة على فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وهذه هي التقوى ، وينهاهم عن التناصر على الباطل ، والتعاون على المآثم والمحارم .

هذه هي أبرز الخصال التي يتوجب على أفراد المجتمع التحلي بها ، وهناك غيرها ، من مثل : الوفاء بالعهد ، والحلم ، ولين الجانب ، والعفو عن المسيء ، وحسن المعاملة ، وهذه الجوانب قد حرص الإسلام على ضرورة الأخذ بها في سبيل تكوين المجتمع الأفضل والامثل .

وفي سبيل تكوين وبناء العلاقات الاجتماعية الفاضلة ، يعطي الإسلام أهمية للفرد في المجتمع ، ويعتبره لبنة في بنائه، وعضواً في جسده ، في صلاحه صلاح المجتمع ، وفي ضعفه أو فساده إضعاف للمجتمع ، وقد أمر الإسلام بكل ما يكمله مادياً ومعنوياً ، واعتز بحياته فلم يجعلها ملكاً خالصاً له ، بل جعلها ملكاً له ، وللمجتمع الذي يعيش فيه من حوله ، ويعمل من أجله ، ولذلك حرم عليه قتل نفسه ، وشدد في ذلك التحريم أيما تشديد ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [ النساء:29 ] .

فإنه ينهي عن أن يقتل بعض الناس بعضاً ، وربما يتسع النهي عن القتل ، فيتناول النهي عن أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه للقتل في الحرص على الدنيا وطلب ملذاتها ، بأن يحمل نفسه على الغرر المؤدي إلى التلف . (36)

فالمجتمع باعتباره الإطار الذي يتفاعل معه الأفراد والجماعات ، ويبينون فيه علاقاتهم مع بعضهم البعض ، وتتوحد وتتكامل فيه جهودهم ، ويفهم فيه سلوكهم وتصرفاتهم ، ويعبرون فيه عن مشاعرهم ، ويشبعون فيه دوافعهم وحاجاتهم ، ويكتسبون منه قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم

واتجاهاتهم وثقافتهم بصورة عامة ، ويتدرجون فيه لبناء وحدتهم ، حتى يصلوا إلى أعالي مستويات الوجود الإنساني العام .

والإسلام يدعو أفراد المجتمع إلى التمسك بأهداب الفضيلة والأعمال الصالحة ، ويجعل ذلك مدعاة لتمكنهم في الأرض ، ولازدهار حضارتهم ، قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [ النور: 53 ] . فالإسلام يشمل الفرد والجماعة بنظرة واحدة شاملة ، ووسيلته إلى ذلك تكوين الفرد المتوازن ، فمثل هذا الفرد بطبيعة توازنه ، لن يعتدي على حقوق غيره ؛ لأن الاعتداء ينشأ من الإسراف ، أي من عدم التوازن في نفس الفرد من الداخل ، وحين يكون كل فرد متوازناً في ذاته ، يتكون بطريقة ذاتية مجتمع متوازن الأغراض والنزعات ، لذلك يعني الإسلام عناية شديدة بكل فرد على حدة ؛ لأنه الوحدة التي ينشأ المجتمع من اجتماعها بغيرها من الوحدات ، والليونة التي يقوم عليها البناء . (37)

ولقد أعتنى الإسلام بوحدة المجتمع ، وهي الفرد باعتبار أن صلاح الفرد أساس ضروري لتكوين المجتمع الصالح ، فعمل على بناء شخصيته وتقويمها ، أي تهذيب جوانبها ، ورسم لها طريق التصرف في حرية وعزة وكرامة . والإسلام بقدر عنايته بالإنسان الفرد ، اعتنى أيضاً بالجماعة الإنسانية ، فارتباط الإنسان بالجماعة ، يهيئ للحياة الفردية وضعاً اجتماعياً ، فهو نوعاً من الإخوة يشعر معها الفرد بتزايد في القوة والأمن ، ويخلق عنده مجالاً للوعي الاجتماعي المشترك ، وهذه الإخوة ، وهذا الوعي ينتج عنهما أنواع من الترابط الإنساني ، ويساهم بشكل فعال في التطور أو الحضارة . (38)

وقد أكد الإسلام على جانب الإخوة بين المساميين ، في إطار المجتمع الإسلامي ، وعلاقات أفرادهم ببعض البعض الآخر ، في أكثر من موطن من القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [ الحجرات: 10 ] . وقال أيضاً : ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [ آل عمران: 103 ] .

### \* المبحث الثالث : انهيار الحضارات في القصص القرآني واندثارها :

إن الحضارة ليست منحة مبدولة من قدرة خارجية ، ولا هي فعل مقدر ، أو قانون مستقل عن الإنسان ، وإنما هي حصيلة ما يكتسبه الإنسان ذاته ، ورهينة بالمعطيات التي تتوفر له

وعلى حسبه جهده في الكسب ، وهي - أي الحضارة - قابلة للنشأة والنمو والرقي والتقدم ، كما هي معرضة للفساد والسقوط والاندثار ، تبعاً للعوامل التي تتوفر لها ، ولنوع الجهد المبذول . وعلى هذا فإن أي جهد يؤدي بصورة مباشرة أو غير مباشرة - تبعاً لمدى توفر المعطيات اللازمة لقيام الحضارة - إلى التحضر والرقي ، ويعكس هذا ، بسبب أي خمود أو تهاون في هذا الجهد ، أو تعطيل له عجزاً في الاكتساب الحضاري ، أو إضاعة للمكاسب والإنجازات ، ويمثل عاملاً انتكاسياً ، وتتضح هذه الرؤية في كل وجه من وجوه الحياة على الأرض ، وكل مظهر من مظاهرها المختلفة .

وقد أشار الإسلام إلى مجموعة من العوامل والأسباب التي تؤدي إلى انهيار الحضارات واندثارها ، والتقهقر بالمجتمعات إلى حيث الظلم والقهر الاجتماعي ، والانهيار الاقتصادي ، وتدمير البنى التحتية للمجتمعات ، ومن بين أهم هذه العوامل الآتي :

### 1- إهمال الشرائع الإلهية :

من بين العوامل التي تسهم في انهيار الحضارات الإنسانية فوق الأرض ، ثم اندثارها ، إهمال الشرائع الإلهية ، مما يترتب عليه انهيار البناء الروحي لأبناء المجتمع ، ذلك أنه إذا نهارت الجوانب الروحية العقديّة في أي مجتمع ، فإنه يفقد قيمة وسبل تقدمه ، ومن ثم تنهار تلك القيم ، مما يؤدي إلى انهيار الحضارة . وقد أوضح الإسلام وذلك ، حيث أشار القرآن الكريم في أكثر من موطن من مواطنه الشريفة إلى ذلك ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا ﴾ [ الإسراء: 16 ] . إذ يشير الحق سبحانه في هذه الآية الكريمة إلى أن سبب هلاك الأمم هو إهمال الشرائع الإلهية الذي يؤدي إلى الانهيار الروحي والأخلاقي ، المتمثل في الفسق والعصيان ، ذلك أن الأمم الإنسانية بخير مادامت محافظة على القيم والأحكام الروحية ، فإن تركتها أنهارت واندثرت . ويضرب الله مثلاً آخراً لانهيار الأمم وحضاراتها بسبب انهيار القيم الروحية والكفر بالله ، قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [ النحل: 112 ] . فهذه القرية كانت آمنة مطمئنة مزدهرة ذات حضارة وعمران ، لدرجة أن اقتصادها أصبح مزدهراً قوياً ، إلا أن أهلها بعد ذلك كفروا بأنعم الله ، فبدل أن يشكروه على ما حباهم به من النعم ، إذ هم يجحدونها ، ويقابلونها بالعصيان والكفر والفسوق ، فكان ذلك سبباً لانهيار اقتصادهم ، واضطراب سبل الأمن



في مجتمعهم ، لأن الفسق والعصيان ، معناه الخروج على تعاليم الله ، الذي يؤدي إلى الظلم الاجتماعي ، والانحلال الأخلاقي ، وهذا سيؤدي إلى الانصراف إلى المذات ، والشهوات المادية وإهمال العمران ، وكذلك يؤدي إلى الجور والطغيان ، والمؤدبين إلى الهلاك .

ومن أهم جوانب البناء الروحي التي أكدها الله ، إخلاص العبادة له وحده ، وتحذيره من اتخاذ الطغاة أولياء من دونه؛ لأن ذلك سيكون مدعاة للهلاك والانهيـار، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [ البقرة:256 ] . وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴾ [ النحل:36 ] . وإنما يكون الاستخذاء للطغاة هلاكاً ؛ لأن الطغاة ظالمون ، والاستخذاء للظلم معناه الشعور بالمهانة ، وانهيـار البناء النفسي، وأن انهياره يعني ممالأة الطغاة ، ومناققتهم على حساب مصلحة الأمة وحضارتها .

وقد ربط الإسلام بين إهمال الشرائع الإلهية المؤدي لانهيـار البناء الروحي ، وبين انهيار الأمم وهلاكها في مواطن كثيرة من الكتاب العزيز ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَا هُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [ الأنعام:7 ] . وقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنَلَّكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [ القصص:58 ] .

إن انهيار قيم أبناء المجتمع ، وانزلاقهم إلى مهاوي الرذيلة نتيجة إهمال أحكام الشرائع الإلهية ، سوف يؤدي حتماً إلى انهيار بنائهم الحضاري ، وتدهوره واندثاره .

## 2- العامل الطبيعي :

من العوامل التي تساعد في انهيار الحضارات واندثارها ، هو العامل الطبيعي ، المتمثل في التقلبات الجوية ، والأعاصير ، والفيضانات ، والزلازل ، والجفاف وما شابه ذلك . وقد بين الله أثر هذا العامل في تدمير الحضارات وانهيارها ، قال تعالى : ﴿ إِحْتَى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [ يونس:24 ] . ووردت الإشارة إلى ذلك في القرآن الكريم في مواطن كثيرة ، وقد جاءت غالباً في معرض الحديث عن إنزال العقاب

بالأمم السابقة نتيجة إصرارهم على الكفر والفساد ، بالرغم من إيصال التبليغ إليهم بواسطة الرسل والأنبياء ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:15] وقال أيضاً : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَلْتَمِسُ عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [ القصص:59] . فإذا تمادى أبناء المجتمع في كفرهم ، وابتعادهم عن النور الإلهي المبلغ إليهم من ربهم ، وركونهم إلى الظلم والطغيان ، لدرجة أن الفساد يكون قد أستشرى في نفوسهم ، ولا أمل في إصلاحهم ، حينئذ لم يكن بُدُّ من استئصالهم ، وقطع دابرهم ، حتى لا يتفشى إفسادهم إلى المجتمعات الأخرى ، وذلك بأن ينزل الله العذاب بهم فيدمرهم تدميراً ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ ﴾ [ الفجر: 6 – 14].

وإنما استحق أولئك ؛ لأنهم بخروجهم على النور الإلهي ، وإصرارهم على الإفساد والظلم ، لا يكونون حينئذ قادرين على إعمار الأرض ، وغير جديرين بحمل أمانة الاستخلاف ، التي أناطها الله بهم ، فيقطع الله دابرهم ، ويستبدل بهم قوماً آخرين جديرين بحمل هذه الأمانة ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [ محمد:38] . وكل أنواع العذاب التي أنزلها الله بالأمم السابقة نتيجة كفرهم وظلمهم وطغيانهم ، كانت تأخذ أشكال الظواهر الطبيعية ، من ذلك الرياح الشديدة والأعاصير التي تدمر كل شيء ، بأمر ربها ، قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ﴾ [الذاريات:41-42] . وقال أيضاً : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ [ القمر: 19-20] . وقال أيضاً : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَحَّرْنَا عَنْهُمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [ الحاقة:3-7] . وقال أيضاً : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [ فصلت: 5] . وقال جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرْنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [ الاحقاف: 23 – 24] .

ومن الظواهر الطبيعية التي أراد الله أن يعذب بواسطتها الأمم السابقة ، الطوفان الذي يغمر القرى ، ومن فيها ، فيأتي عليها وعلى مظاهرها ، كالذي حدث لقوم نوع ( عليه السلام ) وغيرهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [ العنكبوت:13 ] . وقال أيضاً : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [ الأعراف:132 ] . ومن تلك الظواهر الطبيعية الصواعق ، قال تعالى : ﴿ فَعَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ [ الذريات:44 ] . وقد يمطرهم الله مطر السوء ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوًّا أَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ نُنُورًا ﴾ [ الفرقان:40 ] .

هذه ابرز العوامل الطبيعية التي تسبب في انهيار الحضارات الإنسانية فوق الأرض ، كما قصها الله في كتابه الكريم .

مما تقدم يتبين أن الله لا ينزل عقابه بالأمم في الحياة الدنيا إلا بعد أن يستشري الظلم في نفوسهم ، لدرجة لا يرجى معها رجوعهم عن ذلك أو انتفاعهم بالنور الإلهي وذلك بسبب من ضلالهم وإفسادهم وظلمهم وبغيهم ، مما لا يؤدي إلى إعمار الأرض وبالتالي انهيار أوجه الحضارة والرفق واندثارها ، مما يجعل مسألة التخلص منهم أمراً لا بد منه ، فهم بذلك مثل المرض الذي يصيب أنساناً ، فمنه ما يرجى شفاء المريض منه بعلاج أو دواء ، فيصف له الطبيب الدواء اللازم لذلك ، وأحياناً يستشري المرض بحيث لا يمكن علاجه بدواء ، فيضطر الطبيب المعالج لبتز العضو المصاب بعملية جراحية ، والتضحية به ، من أجل سلامة الإنسان والمحافظة على أعضائه الباقية .

### 3- العامل الاقتصادي :

إن لتدهور الجانب الاقتصادي أثراً فاعلاً في تدهور الحضارة واندثارها في أي مجتمع بشري ، وقد حذر الإسلام من الظلم الاجتماعي المؤدي إلى تدهور الوضع الاقتصادي في أي مجتمع بشري ، واضطراب توزيع الثروة بين أبنائه ، وحصرتها في أيدي فئة قليلة متسلطة متخمة على حساب غالبية محرومة فقيرة جائعة ، وبين ما لذلك من أثر سيئ في المجتمع ، والعواقب الوخيمة التي تنتظر أبناءه نتيجة ذلك ، ومن ثم سقوطه وتدهوره ، وتدهور حضارته وانهيارها واندثارها ، قال تعالى : ﴿ فَكَايُنٌ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِبَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيُنرِّ

مُعْطَلَّةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿ [ الحج:83] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [ هود:102] . وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ [ الكهف:58] .

وقد شخص الإسلام ظواهر الظلم الاجتماعي المؤدية إلى التدهور الاقتصادي في المجتمع ، وأمر باجتنابها ، وحذر من العواقب التي تنتظر مقترفيها ، وقد تعم المجتمع بأسره .

**ومن أهم هذه الظواهر :**

**- الثراء غير المشروع :**

وقف الإسلام موقفاً حاسماً من الثراء غير المشروع الذي يؤدي إلى بطننة حفنة ضئيلة على حساب جوع الكثرة الكاثرة من أبناء المجتمع ، ولم يكتف بالتحذير من العواقب الدنيوية والعذاب الأخروي الذي ينتظر المستهترين بحقوق الأفراد وحررياتهم وطموحاتهم في الحياة الحرة الكريمة ، بل سد منافذ هذا الثراء غير المشروع ، وحرّم السبل المؤدية إليه والمتمثلة في :

• **أكل أموال اليتامى ظلماً :**

نهى الله عن أكل أموال اليتامى ظلماً ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾ [ النساء:10] . وأمر برد أموالهم كاملة إليهم عند بلوغهم الرشد ، والقدرة على التصرف في أموالهم ، قال تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء:6] .

• **الربا :**

كما نهى الله عن الربا ، وحرّمه لكونه وسيلة من وسائل الكسب والثراء غير المشروع ، ولم يتهاون بأزائه ، لما له من أثر فاعل في قهر الغالبية من أبناء المجتمع ، واسترقاقهم وإذلالهم المؤدي إلى فقدانهم القدرة على العيش بكرامة ، والإسهام في إعمار الأرض ، وبناء الحضارة في ربوعها ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [ البقرة: 274 - 275].

### • السرقة :

أمر الله بقطع يد السارق والساqrقة ؛ لأن فعلهما اعتداء على حقوق الآخرين دون وجه حق ، وحرمانهم مما هو لهم ، والذي يؤدي إلى الإفساد في الأرض وعدم الاستقرار فيها، وإلى الخوف والقلق المؤديين إلى تقليل فرص المشاركة في إعمار الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [ المائدة:40 ] .

والسارق هو الذي يسرق من مال غيره لا ليسد حاجته الضرورية ، بل لزيادة ثروته دون وجه حق على حساب الآخرين . أما من اضطر لأخذ شيء من مال غيره دون علم من صاحبه، أو دون استئذان أو رضى ؛ ليسد رمقه وحاجته الضرورية ، فما ذلك - فيما اعتقد - من السرقة ، فقد جعل الله له ولأمثاله حقا معلوماً في أموال الأغنياء ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [ المعارج :24-25 ] . ولعل الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب الفاروق ( رضى الله عنه ) حين رفع الحد عن السارق عام المجاعة ، إنما نظر إلى هذه الآية الكريمة من خلال هذا الفهم . (39)

### • الغش والتطيف في المعاملات :

أكد الإسلام على الصدق في المعاملات ، وعدم التطيف والغش فيها ؛ لأن ذلك سيؤدي إلى الإفساد في الأرض المؤدي إلى انهيار حضارة بني الإنسان وتدهورها ، قال تعالى : ﴿ وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَرَّوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [ المطففين:1-3 ] . وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَرِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [ الإسراء:35 ] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [ الأعراف:84 ] .

### • الترف والإسراف :

ومن ظواهر الظلم الاجتماعي المؤدي إلى التدهور الاقتصادي ظاهرة الترف والإسراف ، إذ إن الترف سيؤدي إلى الركون وإلى الراحة وإيثار السلامة على العمل الجاد من أجل البناء والتعمير ، كما أن الإسراف في غير موضعه سيؤدي إلى ضياع المال في مجالات لا تعود على المنفق بنفع خاص ولا عام ، ومن ثم سيؤدي إلى تدهور اقتصاد أبناء المجتمع . وأكد الإسلام على الاعتدال في النفقات جميعها في المأكل والملبس والمشرب ، وفي كل شيء ، ونهى عن الإسراف فيها ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [ الأنعام:142 ] . وقال

تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء:29] . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف:29] . كما نهى الإسلام عن الترف ، وحذر من عواقبه ، وبين أن المجتمع الذي يركن إليه سينهار وتنهار حضارته وتقدمه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرًا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء:16] . ، وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحْسُوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ [ الأنبياء:11-13 ] . وقال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [ هود:116] .

ولم يقف الإسلام عند حد التحذير من الظواهر التي تؤدي إلى التدهور الاقتصادي ، وتحريمه ، والقضاء عليه ، بل شرع سبلاً تعين المحرومين والمستضعفين ، وتأخذ بأيديهم ، وتنهض بمستواهم المعيشي ، حتى يستطيعوا أن يعيشوا حياة حرة كريمة ، تهيب لهم راحة البال ، والاستقرار والتفكير ، وتمنحهم القدرة على العمل الجاد من أجل إعمار الأرض ، والإسهام في بناء الحضارة .

ومن هذه السبل ، الصدقات ، وفي طليعتها ( الزكاة ) التي تمثل مظهراً من مظاهر التكافل الاجتماعي في الإسلام ، وقد أكدها الله كثيراً وقرنها بفريضة الصلاة لأهميتها ، قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [ البقرة:42 ، وكذلك : 82-104 ] .

ومن السبل التي شرعها الإسلام لإعانة المحرومين والفقراء ، وتعد مظهراً من مظاهر التكافل الاجتماعي ، الكفارات ، والنذور ، والصدقات ، وغيرها . ولم يقف الله عند تشريع هذه الأوجه ، بل أمر بالأنفاق على الفقراء مادام المسلم قادراً على ذلك ، وحرّم اكتناز الأموال ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [ البقرة:2 ] . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَدُونُوا مَا كَنْتُمْ تَكْنُرُونَ ﴾ [ التوبة:34-35 ] . كما حث على إطعام المساكين والفقراء واليتامى من ذوي الحاجة ، قال تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [ البلد : 14-16 ] .

ومما تقدم يتبين أن الإسلام بين أن انهيار الحضارات واندثارها بسبب الترف والظلم والكسب غير المشروع ، وغير ذلك من المظاهر التي من شأنها أن تستلزم العقوبة الإلهية ، وتلك هي عقوبة كل حضارة تقنن الظلم وتنظم البغي ، وتستكبر على الحق ، وتفسق عن أمر ربها ، وتكفر بأ نعم الله ، وما يسمع اليوم ويشاهد ، من إتلاف المحاصيل الغذائية في عرض البحر ، وإنفاق لثروات الشعوب على التسليح النووي المدمر ، ليس سوى الكفر بأ نعم الله سبحانه على عباده .

#### 4- العامل الاجتماعي :

ومما يؤدي إلى انهيار بناء أركان المجتمع الإنساني وانتكاس رقيه وتقدمه ، واندثار حضارته ، ظهور وتفشي الفاحشة بين فئات أفرادها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [النور:19] .

فظهر وتفشي النقائص والردائل في أوساط المجتمع ، يؤدي إلى انهيار قيمه ونظمه وعاداته وتقاليده مما يترتب عليه انهيار تطوره ، وتقدمه وتحضره ، وذلك لأن انهيار البناء الاجتماعي معناه تفكك أوصاله ، وتشتت رابطة أعضائه ، وهذا يؤدي إلى الفساد والهلاك ، قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران:103] . وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال:47] . وقال رسول الله ( ﷺ ) : (( مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى )) .<sup>(40)</sup> ذلك لأن انهيار البناء الاجتماعي يكون نتيجة تمزق أواصر أبناء المجتمع وتفككهم وتنازعهم ، والذي سيؤدي إلى تدهور حضارة ذلك المجتمع وانهيارها ، وهذا ما أشار إليه النص القرآني السابق .

#### \* الخاتمة والاستنتاجات :

لقد انتهى الباحث بعد فراغه من دراسة موضوع البحث إلى عدد من النتائج ، وكان من أهمها ما يأتي :

- 1- أرجع الإسلام نشأة الحضارات وتطورها ، وكذلك تدهورها وانهيارها إلى جملة من العوامل ، وربط الحضارة نشأة أو اندثاراً بها ، وهذه العوامل هي : عوامل النشأة ، وعوامل الاندثار ، والمتمثلة في العامل الديني والعامل البيئي ، والعامل الاقتصادي

والعامل الاجتماعي ، والعامل الخارجي وأكد على أن صلاح تلك العوامل وقدرتها في التأثير الحضاري متوقف على مدى التزام أبناء المجتمع بالتشريع الإلهي ، وأرجع مقياس التقدم الحضاري أو تأخره إلى ذلك . أما إذا استشرى فساد أبنائه ، وأصبحوا عاجزين عن التخلص منه ، وأصبح شفاء نفوسهم المريضة ميئوساً منه ، وأضحى بقاؤهم يشكل خطراً على المجتمعات الأخرى في سريان فسادهم إليها ، حينئذ يأتي التدخل الإلهي على شكل عذاب ، فيهلكهم ، ويطهر الأرض منهم ، ومن مفسدهم ، أو يعرضهم لغزو أقوام آخرين .

2- إن الإنسان هو اللبنة المهمة في بناء الحضارة الإنسانية ؛ لأنه يمتلك القوى المادية ، فضلاً عن العقل الذي يكبح به جماح النفس ، ويحد من إفسادها ، ويوجهها نحو إعمار الأرض ، وبناء الحضارة عليها .

3- يعد الإسلام الطابع الإنساني هو المميز للحضارة الإنسانية ، ومن ثم تكون العوامل أساسها ومحركها ، وعليه لا يمكن للحضارة في جملتها أن تقاس بالتقدم الصناعي أو الآلي إلا بمقدار ما يكون ذلك التقدم تعبيراً عن نيات إنسانية ، أما التقدم العاري عن بواعثه وأهدافه ، فإنه لا يعدو أن يكون مظهراً للتفكير المجرد ، أو أثراً من آثار العلم التجريبي وحده ، وربما لا يكون تعبيراً عن وجدان إنساني ، وقد يتخذ وسيلة لأهداف غير إنسانية ، كأن يستخدم في البغي والظلم وإذلال الشعوب واسترقاقها ، أو وسيلة لتدمير الإنسانية نفسها ، وعلى هذا لا يمثل التقدم العلمي في الواقع جانباً من الحضارة الإنسانية ما لم يعمل على ازدهارها ورفيها .

4- إن عذاب الله لا يحل بأمة من الأمم قبل أن يبعث الله فيهم نذيراً ويجابه بالتكذيب ، والتمادي في الفساد والإفساد ، والإصرار عليهما إلى الحد الذي لا ينجع معه في نهاية المطاف سوى التدخل الإلهي الذي يأتي حينها على شكل عذاب يطهر الأرض منهم ومن مفسدهم .



## فهرس الهوامش والإحالات :

- القرآن الكريم .
- 1- سيد قطب : في التاريخ - فكرة ومنهاج - طبعة دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت ، ص 37 .
- 2- عبدالرحمن بن خلدون : المقدمة ، طبعة المطبعة التجارية الكبرى ، مصر ، 1965 م ، ص 22 .
- 3- المرجع السابق والصفحة نفسها .
- 4- عمر عودة الخطيب : المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1970 م ، ص 115 .
- 5- قسطنطين زريق : نحن والتاريخ ، دار العلم للملايين ، 1959 م ، ص 20 .
- 6- عمر عودة الخطيب : المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية ، ص 117 .
- 7- عبدالكريم عثمان ( الدكتور ) : علم الاجتماع ، ( مذكرة ) ، ص 240 .
- 8- عماد الدين خليل ( الدكتور ) : مجلة المسلم ، العدد الأول ، مقال التفسير الإسلامي للتاريخ .
- 9- جمال الدين محمد بن مكرم ، ابن منظور : لسان العرب ، طبعة دار المعارف ، مصر ، مادة ( حضر ) .
- 10- نور الدين حاطوم ( الدكتور ) وآخرون : موجز تاريخ الحضارة ، ج 1 ، مطبعة الكمال ، دمشق ، 1965 م ، ص 4 .
- 11- معن زيادة ( الدكتور ) : معالم علي طريق تحديث الفكر العربي ، عالم المعرفة ، العدد 115 ، ص 48 .
- 12- جمال الدين محمد مكرم ، ابن منظور : لسان العرب ، مادة ( مدن ) .
- 13- قسطنطين زريق : في معركة الحضارة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1964 م ، ص 32 .
- 14- ويل ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، الجزء الأول ، ص 5 .
- 15- جمال الدين محمد بن مكرم ، ابن منظور : لسان العرب ، مادة ( ثقف ) .
- 16- قسطنطين زريق : في معركة الحضارة ، ص 33 .
- 17- معن زيادة ( الدكتور ) : معالم علي طريق تحديث الفكر العربي ، ص 17 .
- 18- المرجع السابق ، ص 31 .
- 19- المرجع السابق ، ص 31 .
- 20- المرجع السابق ، ص 32 .
- 21- المرجع السابق ، ص 33 .
- 22- محمد عابد الجابري : العولمة والهوية الثقافية ، المستقبل العربي ، العدد 228 ، 1998 م ، ص 14 .
- 23- قسطنطين زريق ، في معركة الحضارة ، ص 33 .
- 24- مصطفى غنيمات ( الدكتور ) : الحضارة والفكر العالمي ، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع ، عمان ، 2005 م ، ص 13 .
- 25- حسين مؤنس ( الدكتور ) : الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، عالم المعرفة ، العدد 237 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1998 م ، ص 380 .
- 26- محمد عابد الجابري ، التراث والحداثة ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1991 م ، ص 15 .

- 27- هشام شرابي ( الدكتور ) : المتقفون العرب والغرب في نهاية القرن العشرين ، المستقبل العربي ، العدد 175 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1993 م .
- 28- مجلة رسالة الجهاد : التشريع الإسلامي والقيم الحضارية ، ندوة الدين والتدافع الحضاري ، مالطا ، 1988 م ، ص 75 .
- 29- قاسم عبيد قاسم : اللغة سلاحاً ، مجلة العربي ، العدد 523 ، الكويت ، 2002 م ، ص 17 .
- 30- المبروك أغنية الأسطى ، وإمحمد سعيد البوجديدي : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، مطابع الثورة العربية - طرابلس - ليبيا - 1989 م ، ص 8 .
- 31- ويل ديورانت : قصة الحضارة ، الجزء الأول ، ص 4 .
- 32- أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج 16 ، دار الكتب المصرية ، مصر ، ص 98 .
- 33- المرجع السابق ، ج 14 ، ص 285 .
- 34- قسطنطين زريق : في معركة الحضارة ، ص 42 .
- 35- عبدالرحمن بن خلدون : المقدمة ، ص 43 .
- 36- أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج 5 ، ص 156 .
- 37- عبدالكريم عثمان ( الدكتور ) : معالم الثقافة الإسلامية ، ط 2 ، مكتبة النور ، ليبيا ، 1972 م ، ص 279 .
- 38- زاهر عزب الزغبى : الإسلام ضرورة عالمية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، 1971 م ، ص 170 .
- 39- محمد حسنين هيكل : الفاروق عمر بن الخطاب ، ط 5 ، دار المعارف ، مصر ، ج 1 ، الفصل الرابع عشر ، المجاعة والوباء ، ص 287 .
- 40- رواه البخاري ومسلم ، واللفظ لمسلم .